الكتب

الفن الاسلامى فى مصر

للدكتور زكى محمد حسن
المساعد العلمى بدار الآثار العربية

هذا الكتاب الثمين ليس سوى الجزء الأول من ثلاثة أجزاء وعد المؤلف باصدارها . إذ رأى أن لتاريخ الفن الاسلامى فى مصر حلقات ثلاثا : تبدأ الأولى بالفتح العربى وتنتهى بسقوط الدولة الطولونية ، وتشمل الثانية عصر الفاطميين ، وتحتوى الثالثة على عصر المماليك . وخص هذا الجزء بالحلقة الأولى وكشف فى مستهله عن سر النزعات فى هذا الفن بإيراده مقدمة تاريخية سياسية تفصح للقارىء عن أثر كل تطور خاص بسياسة الدولة المصرية فى الفن الاسلامى

وطبيعى أن يعنى المؤلف الفاضل بناحية البحث فى تاريخ فن العمارة وزخرفة البناء الأسلامية عناية خاصة . وليس ذلك لمجرد مطابقة هذه الناحية من الفن لطابع العرب الدينى ، بل ولأنه أيضا استرعى أنظارهم وهم البدو وما كنهم الشعر ، ولاءم مزاجهم الرياضى الفنى ، واتفق وغرضهم من التعمير — على حد ما نعتقد

ولم يستكمل الفن الاسلامى فى مصر وضوحه إلا فى عصر الطولونيين . وكان فناً مستقلا عن الفن الذى ازدهر فى سامرّا مدينة المعتصم

واستعرض المؤلف تاريخ تلك المدينة منذ نشأتها ، ثم واصل عرض آراء العلماء فى شأن فنها ، وأخذ يوازن بين الخطأ فى تلك الآراء والصحيح منها

ومن أهم النظريات التى أثبتها اعتبار زخارف سامرا غير متأثرة بأساليب الفن السيتى إلى حد كبير ، كذلك اعتبار أن الجند الترك لم يكن لهم فى الناحية الفنية شىء يذكر فى عهد الخلفاء العباسيين ، وأن الفرس عاشيهم الفنى المجيد أكثر استعداداً من الترك للتأثير فى الفنون الأسلامية ، ولو أن ذلك الرأى قال به غيره ، إلا أنه عززه بأدلة مما عثر عليه من صور فى سامرا ، ولم يفت المؤلف ذكر توافد مهرة الصناع العراقيين والفارسيين والأغريق وغيرهم على سامرّا ، فأصبح الفن هناك خليطا

وتكلم المؤلف فى الفصل الثانى من الكتاب عن العمارة الدينية ، ولا شك أن العمارة بلغ بها المسلمون شأوا بعيداً ، إذ هى عندهم أجل الفنون ، فابتدعوا فيها وأبدعوا ؛ ويعد جامع احمد ابن طولون أهم الآثار العربية فى مصر وأقدم شاهد على المدنية الاسلامية فيها . ودحض المؤلف فكرة أن هذا الجامع كان من مساجد المعسكرات . وهى فكرة رائجة بين عدد من علماء الفرنجة

ثم جاء فى الفصل الثالث على ذكر العمارة الحربية والمدنية التى لم يبق منها لعهد الأسرة الطولونية سوى قناطر ابن طولون . إلا أن مؤرخى العرب ومؤلفى الخطط أفاضوا فى وصف مدينة القطائع والبيمارستان وكذا القناطر . وذكر المؤلف بعض تفاصيل شائقة عن تأسيس مدينة القطائع وعن قصر ابن طولون بها الذى حاكى به قصور الخلفاء فى سامرا . وجاء بوصف ممتع للقصر وما حوى وما أضافه ابنه خمارويه عليه من أبنية وحدائق . وكان لتنقيب دار الآثار العربية وعثورها فى صيف سنة ١٩٣٢ على أطلال منزل طولونى بالتلال المجاورة لأبى السعود الفضل فى الاستدلال على بعض قواعد وأصول العمارة المدنية الخاصة بالعصر الطولونى . وذكر المؤلف أن قناطر ابن طولون شيدت فى الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة القطائع . ولا زالت بعض عقود القناطر قائمة حتى اليوم ومنها يستدل على متانتها وبديع الصناعة فيها ؛ والمعروف أن المهندس النصرانى الذى تولى لابن طولون بناء هذه العيون هو نفس المهندس الذى شيد له فيما بعد المسجد الجامع

أما زخرفة المبانى للعهد الطولونى التى وردت فى الفصل الرابع من الكتاب ، فهى أكثر الفنون التى تأثرت بالصناعة العراقية والفن الذى ازدهر فى سامرا . وعالج فيها المؤلف مشكلة اختلف فيها العلماء وهى هل كان موطن هذه الزخارف ومكان نشأتها البلاد المصرية ، أم أن الزخارف الطولونية مأخوذة عن

الزخارف العراقية فى سامرا ؟ ورأى المؤلف فى الجمع بين الرأيين حلا لاشكالة ؛ وقد حلل الدكتور محمد حسن الزخارف إجمالا تحليلا دقيقاً ، لا نستطيع الا أن نحيل القارئ إلى ما كتبه عنها

ثم انتقل فى كتابه إلى الفنون القديمة ، ومهد لها بكلمة جامعة قيمة . وأتى فى الفصل الأول على تاريخ صناعة النسج فى مصر وتطورها ، فاستغنى شيئا فشيئا عن الرسوم الآدمية والحيوانية التى كانت فى المن القبطى ، وقوى الميل إلى الزخارف الهندسية ، كما لعبت الكتابة دورا هاما فى هذه الصناعة . وكانت صناعة الحرير والقطن والكتان من الجودة بدرجة أن المباراة بين الكنائس والمساجد والأسواق الخارجية كانت تزاحم للحصول على منسوجات مصر . ومع كل فلم يطبع النسج بطابع إسلامى إلا ابتداء من العصر الفاطمى

ثم تكلم المؤلف عن الحفر على الخشب ، وأبواب استعماله فى مختلف أنواع المبانى والزخرف . ويمكن اعتبار أن هذا الفن بقى حافظا للتقاليد القبطية زمنا طويلا ، بدليل ما كان يقصر ابن طولون ؛ وأبان المؤلف ذلك كما أبان النزعة إلى الكتابة على الخشب فى عهد ابن طولون . ثم عالج فى اقتضاب تطور الخط العربى ، ورأى أن المناسبة حسنة لذلك

وانتهى من ذلك إلى الكلام عن الخزف ، ولو أن دراسة الخزف الاسلامى لا زالت صعبة المنال ، ولكن مما لا جدال فيه أن الخزف الاسلامى يمتاز بالجودة عن الخزف المصرى فى العهد القبطى فكان الخزف للعهد الطولونى يصنع من طينة رقيقة . ويمتاز بزخارف ذات بريق معدنى ، ذى لون أصفر أو زيتونى على أرض بيضاء أو بيضاء مشوبة بالصفرة . وهذه الميزات نفسها نجدها فى الخزف الذى عثر عليه فى سامرا

ثم ختم أبحاثه ببحث عن التصوير طريف . وفيه ذكر أن التصوير الذى ينسب إلى مدرسة بغداد كانت تمد سورية أو العراق أو إيران مصدره ، وان فن التصوير لم يزدهر إلا فى تلك الأقاليم متأثرا بالتعاليم الفنية التى أخذها العرب عن المانويين واليعاقبة والصينيين . وظلوا لا يفكرون فى مصر كمهد لمدرسة من مدارس التصوير الاسلامى حتى كان الاكتشاف المشهور فى الفيوم ، ذلك الاكتشاف الذى أثبت وجود صور مصغرة إسلامية ترجع الى القرن التاسع والعاشر والحادى عشر . ولم يترك المؤلف هذا الفصل دون أن يعالج ما يسمونه تحريم التصوير فى الاسلام ، وقد أجل القول بأن نظرة فى الكتاب الكريم ، وفى كتب التفسير ، وفى أسباب النزول كافية لأن تثبت هذا الزعم باطل لا أساس له وان كان مكروها

وعقد المؤلف للكتاب خاتمة ألم فيها بالصناعات التى عرفت مصر فى فجر الفنون الاسلامية ، وذكر فى لمحات سريعة تطورها حتى نهاية العصر الطولونى ، وأشار الى أن رجال الفنون والصناعات فى القرنين الأول والثانى بعد الهجرة ، كانوا من المصريين ، سواء فى ذلك من اعتنق منهم الاسلام ومن ثبت على المسيحية

ولا شك فى أن الدكتور زكى محمد حسن قد أحسن دراسة موضوعه وسار ببحثه سيراً هادئا ؛ وكان قديرا فى مناقشة حجج علماء الفنون الاسلامية ، وفى تدعيم آرائه بالبينة ، وليس ذلك بالأمر الصعب على مثله ، وقد راجع عشرات الكتب ، وعصر عديد التحف قبل أن يستقر على رأى يبديه فى جملة متواضعة وفى أسلوب سهل رصين ، وكان موفقاً فى تنسيق بحثه تنسيقا محكما حتى كاد يبدو تحفة فى ذاته ، وساعده جمال الطبع والورق والتجليد على زيادة بهائه ورونقه ، وقد يهم القارئ أن يعرف أن المؤلف لم يترك كتابا قرأه فى ذلك البحث إلا وذكره ضمن مراجعه ، كما ذيل الكتاب بتراجم أهم الأسماء الواردة فى الكتاب وكذلك ذيله بلوحات فتوغرافية غاية فى الاتقان لايضاح ما تكلم عنه

واسنا وحدنا الذين نثنى على حضرة الدكتور زكى محمد حسن وعلى عمله وجهده هذا ، ولا عيب عليه سوى انه يتركنا بعد قراءة هذا الكتاب ، أو قل دراسته ، نتلهف لقراءة المطولات من قلمه ؟